الأدب الرحلي السعودي خلال القرن العشرين: دراسة تاريخية تحليلية

إعداد الباحث:

ابتهال بنت على بن عبدالوهاب الشريف

الملخص:

تهدف الدراسة للتعرف على مكانة الأدب الرحلي السعودي في القرن العشرين، وبيان أهميته بين النصوص الأدبية السعودية بشكل عام، وذلك من خلال تحليل أبعاده المختلفة التاريخية والجغرافية والفنية، والتعرف على أهم وأبرز الرحالة في هذا القرن، وذلك بالاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي، وقد جاءت الدراسة في مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وقد توصلت الدارسة للعديد من النتائج، من أهمها: تميز العديد من الأدباء السعوديون في القرن العشرين في تقديم الأدب الرحلي على نحو متميز وممتع. تميز النص الرحلي السعودي في القرن العشرين بتوسعه في بعده الجغرافي، حيث شمل البعد الداخلي للجغرافية الداخلية، والبعد الخارجي الذي شمل القارات كلها. تميز النص الرحلي السعودي في القرن العشرين بالعديد من الخصائص الفنية والقيم الجمالية، كالتأثر الواضح بالثقافة والقيم الإسلامية. والرؤية النقدية الموضوعية. وتقديم الصورة التفصيلية للمشاهد المختلفة. واستخدام النزعة القصصية. وأوصت الدراسة بعمل موسوعة كبيرة تضم كل النصوص الرحلية السعودية في القرن العشرين بما يساهم في حفظ التراث الرحلي السعودي.

الكلمات المفتاحية: أدب، رحلي، سعودي، القرن العشرين.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وأسوة المهتدين، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وبعد..

فإن النثر في الأدب السعودي ثري ومتنوع؛ له خصائصه التي تتفاوت من جيل إلى جيل، ولكن هذا اللون -النثر- لم يحظ بالاهتمام والعناية والدراسة المطلوبة قياًسا بالشعر، ولعل السبب في ذلك علو شأن الشعر في الذهنية العربية بشكل عام، والسعودية بشكل خاص؛ فالشعر فيه من الإطراب والتصوير ما يجعله جديرا بهذه المكانة، وقد عرف الناثر السعودي للشعر قيمته فعمد إلى تضمين نصوصه النثرية بشيء منه؛ حتى يضيف لنثره شيئاً لا يشعر معه المتلقي بالرتابة والملل.

والنثر له ألوان متعدد كالخطابة، والقصص، والرواية، والأمثال، والحكم، والوصايا...إلخ، وكل هذه الصور قد أخذت حظا من الدراسة والعناية بنسب متفاوتة، ولكن ثمة لون من هذه الفنون تأخرت فيه الدراسات السعودية الحديثة بعض الشيء، وهو أدب الرحلة الذي يشكل نافذةً واسعةً على الثقافات والحضارات الأخرى، ويعدّ مرآةً تعكس المجتمعات التي ينتمي إليها الرحالة.

وفي السياق السعودي؛ فقد شهد القرن العشرين تطورات اجتماعية وسياسية واقتصادية متسارعة، انعكست حتمًا على إنتاج الأدب الرحلي، سواءً من حيث الكم أو الكيف. وستعتني هذه الدراسة بالحديث عن ذلك تحت عنوان: الأدب الرحلي السعودي خلال القرن العشرين: دراسة تاريخية تحليلية.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

يتعرض البحث لمكانة الأدب الرحلي السعودي خلال القرن العشرين وأهميته بين النصوص الأدبية السعودية بشكل عام، وذلك من خلال تحليل أبعاده المختلفة التاريخية والجغرافية والفنية، والتعرف على أهم وأبرز الرحالة في هذا القرن. وتقوم الدراسة على فرضية أن النص الرحلي السعودي في القرن العشرين له أبعاد ومزايا متعددة؛ لذا تطرح الدراسة التساؤلات التالية لدعم هذه الفرضية:

١. ما أبعاد النصي الرحلي السعودي في القرن العشرين؟
٢. ما أهمية البعد التاريخي والجغرافي والفني للنص الرحلي السعودي في القرن العشرين؟
٣. من أبرز الرحالة السعوديون في القرن العشرين؟
٤. الخصائص والمزايا الفنية للنص الرحلي السعودي في القرن العشرين؟

أهمية البحث:

يسلط البحث الضوء على الأدب الرحلي السعودي في القرن العشرين، والتعرف على أبرز الرحالة السعوديين، وكذلك التعرف على الأبعاد الجغرافية والفنية للنص الرحلي السعودي، وتقديم صورة شاملة عن الأدب الرحلي السعودي في هذا القرن.

أهداف البحث:

يهدف البحث للوقوف على أهم وأبرز المزايا للنص الرحلي السعودي في القرن العشرين، وذلك من خلال النقاط التالية:

١. الوقوف على أبعاد النصي الرحلي السعودي في القرن العشرين.
٢. التعرف على أهمية البعد التاريخي والجغرافي والفني للنص الرحلي السعودي في القرن العشرين.
٣. الوقوف على السيرة الذاتية لأبرز الرحالة السعوديون في القرن العشرين.
٤. تحليل الخصائص والمزايا الفنية للنص الرحلي السعودي في القرن العشرين.

منهج الدراسة:

وتعتمد الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، وذلك من خلال تتبع النصوص الرحلية السعودية من بداية القرن العشرين وتطورها، واستشراف مستقبل النص الرحلي في المملكة العربية السعودية، والتأكيد على أهمية التفاعلات التي حدثت للنص الرحلي في هذا القرن ومدى تأثيرها على تطور هذا الفن في أبعاده المختلفة.

الدراسات السابقة:

دراسة عبد الله آل حمادي (١٩٩٧م)، بعنوان "أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية" وهي من أهم الدراسات في الأدب الرحلي السعودي، وقد اهتمت بتحليل البعد الفني كثيرا، وقدمت نقدا أدبيا مهماً للخصائص الفنية والقيم الجمالية للنص الرحلي السعودي، وتعتبر من أهم المراجع في هذا المجال، ولكنها لم تهتم كثيرا بالبعدين الجغرافي والتاريخي. واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، وقد توصلت للعديد من النتائج من أهمها: كثرة الإنتاج السعودي للنص الرحلي، واعتباره من بين الأكبر على المستوي العربي، وأن الرحالة السعوديون أكدوا على قيمهم الدينية في نصوصهم الرحلية، واستخدام الرحالة السعوديون للصورة كأداة لنقل المشاهد من عالم القراءة المجردة إلى عالم المشاهدة.

ودراسة فلاح بن مرشد العتيبي (٢٠٢٢م) بعنوان "الاستطراد السردي عند الرحالة السعودي محمد بن ناصر العبودي، كتاب: من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء أنموذجًا" وقدمت هذه الدراسة صور مختلفة للاستطراد السردي عند الأستاذ العبودي في رحلته إلى روسيا، وتناولت الدراسة دوافع الاستطراد السردي عند العبودي، وأنواعه، وكان من أهم نتائجها: مجيء استطرادات العبودي من حيث الشكل على نوعين؛ أحدهما: الاسترجاع الفني، والآخر: الخروج أو الانتقال. وأن استطراداته التخيلية أعطت الرحلة مسحة فنية أعلت من شأن الجانب الذاتي فيها.

خطة البحث:

وتتكون الدراسة من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة؛ على النحو التالي:

المبحث الأول: البعد التاريخي والثقافي للأدب الرحلي السعودي في القرن العشرين.

المبحث الثاني: البعد الجغرافي للأدب الرحلي السعودي خلال القرن العشرين.

المبحث الثالث: الخصائص الفنية والجمالية للأدب الرحلي السعودي خلال القرن العشرين.

تمهيد:

الرحلة لغة: "من التَّرْحِيل والإِرْحَال بِمَعْنَى الإشخاص والإزعاج. يُقَالُ: رَحَلَ الرجلُ إذا سَارَ، وأَرْحَلْتُهُ أَنا. وَرَجُلٌ رَحُول وَقَوْمٌ رُحَّل أَي يَرْتَحِلُونَ كَثِيرًا. ورَجُل رَحَّال: عَالِمٌ بِذَلِكَ مُجِيدٌ لَهُ. وإبل مُرَحَّلَة: عَلَيْهَا رِحالُها، وَهِيَ أَيضاً الَّتِي وُضِعت عَنْهَا رِحَالُها". (١)

وفي الاصطلاح: "ذلك النثر الذي يصف رحلة واقعية، قام بها رحال متميز، موازًنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه". (٢)

فالرحلة هي تسجيل شخصي لما يمر به الرحالة في أسفاره، وما يخبر به من انطباعات ومشاهدات، وفي حال كان الرحالة مبدعا في وصف رحلته والتعبير عنها؛ فإن ذاته تتوحد مع المتلقي، بحيث يكون المتلقي كأنه مصاحب للرحالة أثناء رحلته، ويصبح جزءا من وقائعها، وينتقل مع الرحالة بين الأحداث بشكل واع. وهو ما يجعل من تتبع الأدب الرحلي السعودي في القرن العشرين له مذاقه الخاص، حيث شهد هذا الفن تطورا متدرجا وملحوظا من بدايات القرن وحتى وقتنا الحاضر.

المبحث الأول: البعد التاريخي والثقافي للأدب الرحلي السعودي في القرن العشرين.

جاءت بواكير انتاج النص الرحلي السعودي في القرن العشرين في إطار الباعث الوطني، فرحلة فؤاد حمزة انطلقت عام (١٣٥٢هـ) لتمثيل المملكة في المفاوضات مع اليمن، فيما كانت رحلة فؤاد شاكر عام (١٣٥٩ هـ) لزيارة الملك عبد العزيز بعد طلبه ذلك من أعيان مكة المكرمة، وفي العام ذاته كانت رحلة محمد عمر رفيع لغرض التدريس في مدرسة رجال ألمع في منطقة عسير. (٣)

ثم تطور الأمر بعد ذلك فلم يقف النص الرحلي عند هذا الحد؛ فقد شهد القرن العشرين تحولات جذرية في شتى المجالات، بما في ذلك مجال الاستكشاف والسفر. وعلى الرغم من التحديات الجغرافية والاجتماعية، ظهرت نخبة من الرحالة السعوديين الذين تركوا بصمات واضحة في تاريخ بلادهم والعالم العربي. هؤلاء الرحالة لم يقتصروا على استكشاف الأراضي البعيدة، بل كانوا سفراء ثقافتهم وحضارتهم، وساهموا في بناء جسور التواصل بين شعبهم والشعوب الأخرى. من أبرز هؤلاء الرحالة بحسب أقدمية الميلاد:

١ – الأديب الرحالة **حمد بن محمد الجاسر** (١٩٠٩ – ٢٠٠٠م)، هو كاتبٌ ونسَّابة ومؤرخٌ، من مؤسسي الصحافة في المملكة العربية السعودية. وقد أشار الأستاذ حمد في مقدمة كتاب (رحلات حمد الجاسر) إلى أن رحلاته تنقسم إلى ثلاثة أقسام، الأول: رحلات خارجية، والغرض منها زيارة المدن التي تحوي مكتباتها مخطوطات عربية؛ للاطلاع عليها، ووصفها، وتصوير ما يمكن تصويره منها، والثاني: رحلات داخلية، والهدف منها مشاهدة بعض المدن والقرى والمواضع التاريخية للكتابة عنها في كتاب "المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية" ويعاونني في تأليفه بعض الأخوة، ولم يبق منه

(١) ابن منظور، لسان العرب، ١١ / ٢٧٧.
(٢) الموافي، ناصر، الرحلة في الأدب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الوفاء، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٤.
(٣) حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٩٧م، ص ٢٧.

سوى القسم المتعلق بالحجاز، والقسم المتعلق بالمنطقة الجنوبية، بلاد عسير ونجران وما حولها، والثالث: رحلات للعلاج والاستجمام، وذكر أنه نوع لا يهم القراء كثيرا. [٤]

٢ – الأديب الرحالة **عبد الله بن محمد بن خميس** (١٩١٩-٢٠١١م)، وله العديد من النصوص الأدبية المنتمية إلى الأدب الرحلي، والنثر الفني، والشعر، ويتميز ابن خميس من بين أبناء جيله بالتنوع المعرفي والعمق في الأدب والعلوم المختلفة والابحار في شتى العلوم والافادة من قواسمها المشتركة لخدمة بعضها البعض، وله العدي من الرحلات الخارجية. منها: (شهر في دمشق جزء واحد)، (جولة في غرب أمريكا جزء واحد). [٥]

٣ – الأديب الرحالة **محمد ناصر العبودي** (١٩٢٧-٢٠٢٢م) [٦]، وهو واحد من أهم الرحالة السعوديين في القرن العشرين، إن لن يكن أبرزهم على الإطلاق؛ فقد كان مجدا صاحب رسالة، تقلد منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي، ولم يكن همه من رحلاته الكثيرة مجرد المتعة الشخصية، وإنما كانت رحلاته للكشف عن أحوال البلاد التي ارتحل إليها، وكشف خباياها وأسرارها لأبناء أمته، وكان أغلبها في البلاد الإسلامية، أو الدول التي تعيش فيها جاليات مسلمة، وقد بلغ تعداد مؤلفاته ما يقترب من العشرون ومائة مؤلف، وهو رقم ضخم يحتاج تتبعه أبحاثا مستقلة، وسنشير لبعض منها في الحديث عن الأبعاد الجغرافية والأدبية للنص الرحلي السعودي في القرن العشرين في المباحث التالية. [٧]

٤ – الأديب الرحالة الفريق **يحيى المعلمي** (١٩٢٨-٢٠٠٠م) اشتهر بمساجلاته الأدبية وخاصة مع الأديب الشيخ عبد الله بن خميس، والشيخ أبي عقيل الظاهري. عني بالدراسات القرآنية؛ خاصة الجانب اللغوي منها إذ كان واحدا من حُماة الفصحى والمدافعين عنها بقوة، وكان عضوا بمجمع اللغة العربية. كما له العديد من المؤلفات تجاوزت الأربعين مؤلفا تنوعت بين الدراسات اللغوية والقرآنية والأمنية والأدبية وتوزعت على اللغة العربية والإنجليزية والأردية والفرنسية والألمانية. ومن مؤلفاته الرحلية (رحلة علمية ورحلات أخرى). [٨]

٥ – الأديب الرحالة **عبد العزيز بن عبد الرحمن المسند** (١٩٣٢-٢٠٠٧م)، وهو شخصية بارزة تركت بصمة مهمة ومؤثرة في المجالين الثقافي والعلمي. اشتهر بكونه أديباً رحالة، بالإضافة إلى مسيرته الممتدة والطويلة في العمل التعليمي والإداري. وله مؤلفان في أدب الرحلات هما: (الأندلس تاريخ وعبرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، (الصين: يأجوج ومأجوج، الرياض، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م). [٩]

٦ – الأديب الرحالة **عبد الله محمد الحقيل** (١٩٤٠-٢٠٠٩م) يعد واحداً من أهم أدباء الرحلات العرب؛ فقد ألّف الكثير والكثير من الكتب في هذا المجال، منها: (رحلات ومشاهدات في ربوع بلادي).

---

(٤) الجاسر، حمد، رحلات حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر – الرياض، ١٩٨٠م، ص ٦.
(٥) عبد الله بن محمد بن خميس.. سيرة ومسيرة، جريدة الجزيرة.
(٦) المصدر السابق، ص ٢١.
(٧) أحمد، محمد، الشيخ العلامة والأديب الرحالة محمد ناصر العبودي، مكتبة الثقافة العصرية، جدة، ١٤٣١، ١/ ٧٠ – ٧٣ بتصرف.
(٨) القرني، صلاح، الفريق يحيى المعلمي.. سادن اللغة والغواص في صدفاتها، جريدة الرياض، تاريخ النشر: ٦ أكتوبر ٢٠٢٢م.
(٩) وفاة الشيخ عبد العزيز المسند إثر سكتة قلبية، جريدة الرياض - العدد ١٤٣٤٤.

(رحلات ومشاهدات في الوطن العربي والأندلس). (رحلات ومشاهدات سائح في البلاد الأوروبية). (رحلات إلى الشرق والغرب). (رحلات ومشاهدات في شرق أسيا). (رحلة إلى اليابان). (من وحي رحلاتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية) ... إلخ. وقد ذكر الأديب الحالة عبد الله الحقيل في كثير من هذه المؤلفات الرحلية أن المملكة لديها مخزوناً هائلاً من التاريخ والتراث والسياحة في اتجاهاتها الأربعة؛ شرقا وغربا، جنوبا وشمالا، وأشار إلى أنها موطن الأدباء والشعراء والرواد الكبار الأوائل، وتحدث عن أماكن مهمة جداً في السعودية، تعد من الأماكن ذات الأهمية في التاريخ العالمي، كالأخدود ومدائن صالح وتبوك وبلاد مدين وشعيب.. وذكر أنها رافد مهم للسياحة في المملكة. وخلال رحلاته المتعددة كانت بلاد الأندلس هي الأقرب إلى نفسه. (١٠)

٧ – الأديب الرحالة **علوي بن طه الصافي**، (١٩٤٤-٢٠٢٢م)، أديب وقاص وكاتب وصحافي سعودي. معدود من أشهر الأدباء في القرن العشرين في المملكة العربية السعودية. ساهم في إثراء الصحافة الثقافية المتخصصة منذ وقت مبكر من خلال صحف: (البلاد)، و (اليمامة)، و(الجزيرة) كما ترأس (مجلة الفيصل)، وكان مديرا لدار الفيصل الثقافية مدة ستة عشر عاما. أما مؤلفاته فكانت متنوعة؛ فمن فن القصة القصيرة، الى أدب الرحلات، وأدب الأطفال والقضايا الإنسانية والاجتماعية، تنقَّل علوي الصافي بقلمه الذي كان ينساب في كل مجال بقيمة أدبية وثقافية زاخرة. ومن مؤلفات الرحلية: (السمكة والبحر: قضايا وقراءات في الأدب والفكر). (إسبانية تحسب قلبي بئر بترول). (١١)

من خلال هذا الاستعراض السريع لسير أهم أدباء الرحلة السعوديون في القرن العشرين، يمكن استخلاص العديد من النقاط:

أولا: لم يكن الرحالة السعوديون في القرن العشرين أدباء رحلة فقط، وإنما كان النص الرحلي أحد مكونات نصوصهم الأدبية؛ فقد كان منهم الصحفيين، والمؤرخين، وأصحاب كتابات دينية...إلخ. وهو ما يعني أن أدباء الرحلة السعوديين كانت لديهم خلفية ثقافية متنوعة وثرية، كان لها مردود إيجابي متدرج على النص الرحلي.

ثانيا: أن معظم أدباء الرحلة كانوا يذكرون الهدف من رحلاتهم في مقدمة كتبهم، بمعنى أن كثيرا من هذه الرحلات كان له هدف محدد وواضح، وهو ما جعل للنص الرحلي السعودي في القرن العشرين أبعادا ثقافية مقصودة بعينها. لهذا نقرأ في مقدمات رحلاتهم، سواء أكانت بأقلامهم أم بأقلام غيرهم، كلاماً ملتزماً وجاداً بمضمون الرحلة وغايتها، وما تلك يمكن أن تحققه ونستخلص عبر المقدمات، وعياً برسالة كاتب الرحلات، وتفهماً للكيفية التي ينبغي أن يكون عليها أدب الرحلات (١٢).

ثالثا: لم يكن النص الرحلي السعودي في القرن العشرين خاصا بالرحلات الخارجية فقط؛ فقد كان للرحلة الداخلية أهمية كبرى لدى هؤلاء الرحالة؛ قد تدفع بعضهم إلى التفاخر بعدد الرحلات الداخلية التي كتب عنها.

(١٠) العضيلة، عارف، عبد الله الحقيل.. مسيرة وطنية وتربوية وأدبية ناصعة البياض، جريدة الجزيرة، بتاريخ: الاثنين ٠٨ مارس ٢٠٢١.
(١١) وفاة الكاتب والصحفي علوي الصافي عن عمر يناهز ٧٨ عاماً، صحيفة سبق، نشر بتاريخ: ٢٦ يونيو, ٢٠٢٢.
(١٢) ينظر: رداوي، محمود، خصائص الرحلات فى الأدب السعودي المعاصر، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، المجلد ١، العدد ٤، ص ٩٠.

رابعا: لم تخلو النصوص الرحلية السعودية في القرن العشرين من الإشادة بفضل واهتمام الملك فيصل وآل سعود الذين ساعدوا وسهلو للرحالين مسعاهم بالتقارير والبيانات الرسمية، أو الذين كان لهم شرف وضع مبادئ الرحلات العلمية والتراثية وتنفيذها، وبخاصة الشعرية التي يصبح غرض الرحال منها هو أن يدل قراء العربية على المواطن التي عاش فيها شعراء العروبة وأدباءها في عصر الجاهلية وعصر صدر الإسلام. (١٣)

وقد ذكر الأديب الرحالة محمد ناصر العبودي في كتابه "حصاد الرحلات" أن أولى رحلاته إلى "إفريقيا" كانت بمباركة من الملك فيصل -رحمه الله- وبدعم مالي منه سنة (١٣٨٤ ه)، وكان الهدف الأساسي من هذه الرحلة هو متابعة أحوال المسلمين والمنظمات الإسلامية، وقد ذكر أنه وجد أمورا غير واضحة في أذهان السعوديين عن المسلمين في أفريقيا؛ وهكذا توالت الرحلات إلى فريقيا وغيرها. (١٤)

خامسا: أن أدب الرحلة في السعودي في القرن العشرين كان له أثر حضاري كبير. حيث كان الرحالة السعوديون يسافرون إلى مختلف أنحاء العالم لأسباب دينية، تجارية، علمية، أو ببساطة للتعرف على الثقافات الأخرى. وقد سجلوا تجاربهم وملاحظاتهم في كتب ومذكرات، مما ترك لنا إرثًا أدبيًا وثقافياً غنيًا.

المبحث الثاني: البعد الجغرافي للأدب الرحلي السعودي خلال القرن العشرين.

يعتبر البعد الجغرافي عنصرًا أساسيًا في الأدب الرحلي السعودي، حيث ساهم في تشكيل هوية هذا اللون من النصوص الأدبية، وإبراز جمال المملكة وتنوعها. ومن خلال استكشاف هذا البعد، يمكننا أن نكتشف المزيد عن تاريخ وثقافة المملكة في عيون أبناءها من الرحالة، وأن نقدر قيمة هذا التراث الأدبي الغني. كذلك من خلال تسليط الضوء على الرحلات الخارجية التي قام بها هؤلاء الرحالة، وذلك من خلال التركيز على بُعدين:

البُعد الأول: البعد الجغرافي الداخلي للنص الرحلي السعودي في القرن العشرين، ويتمثل في عشرات المؤلفات التي تناولت رحلات داخلية قام بها الرحالة السعوديون للمساهمة في استكشاف المدن والبلدان والأماكن التاريخية داخل المملكة والإشارة إليها، وهذا الاتجاه مختلف في تصنيفه كأدب رحلة بين الباحثين إلى فريقين:

الفريق الأول: يرى أن هذا اللون هو من صميم أدب الرحلة، ويجعل كثيرا من المصنفات التي لها طابع علمي باعتبارها من صميم أدب الرحلات السعودي في القرن العشرين، مثل: (معجم المعاجم الجغرافية في السيرة النبوية) لعاتق البلادي، (الموسوعة الجغرافية لشرقي البلاد السعودية) لعبدالرحمن عبدالكريم، (معجم جبال الجزيرة) لعبد الله بن خميس، (المجاز بين اليمامة والحجاز) لعبد الله بن خميس، (في شمال غرب الجزيرة) لحمد الجاسر، (بلاد ينبع) لحمد الجاسر، (أربعة أيام في منطقة الباحة) لعلي

(١٣) المصدر السابق، ص ٩٠.
(١٤) العبودي، ناصر، حصاد الرحلات، مكتبة الرشد، ١٤٢٨، ص ١٦ – ٢٥ بتصرف.

حافظ، (رحلتي مع العقيلات) لإبراهيم المسلم، (جولة في ربوع بلادي) لمسفر الغامدي، وكتب عاتق البلادي (الرحلة النجدية، على ربى نجد، على طريق الهجرة، رحلات في بلاد العرب). [١٥]

الفريق الثاني: يرى أن هذا اللون من الكتابات -السابق ذكرها- المقتصرة على البعد العملي ولا يكاد يكون لها أي طابع أدبي لا يمكن اعتبارها من الأدب الرحلي، فهي وإن كان لها أهمية علمية في مجال الجغرافيا والتاريخ والأنساب، وغيرها من العلوم القائمة على الرؤية المشاهدة؛ إلا أن الحس الأدبي فيها قليل إلى الحد الذي يمكن معه ذكرها في سياق الأدب الرحلي السعودي.[١٦]

هذه الجدلية في نسبة مثل هذه المؤلفات للأدب الرحلي السعودي ليست خاصة بالنص الرحلي السعودي وحده، وإنما هي إشكالية التجنيس الأدبي للنص الرحلي ذاته؛ فالنص الرحلي يشكل -أحيانا- بنية مثيرة للحيرة والنقد والتأويل؛ لتقاطعه مع أجناس أدبية ومعرفية أخرى، بداية من الرواية وحتى السيرة الذاتية، والمذكرات الشخصية، ومرورا بأشكال فنية أخرى، وحقول معرفية كالدراسات التاريخية، والاجتماعية، والأنثربولوجية، فهو نوع مركب ومؤسس من جملة من الأجناس الأدبية والثقافية والتاريخية المتداخلة، وقد ساهم في تكوين الرواية الحديثة والتجديد في الكتابة البيوغرافية. [١٧]

على أن إشكالية الأجناس الأدبية -بشكل عام- من القضايا النقدية القديمة المتجددة؛ فصفاء الجنس الأدبي، وانفراده بصفات ثابتة تحدد هويته بشكل مستمر لا يمكن الجزم به، وهذا يرجع أيضا إلى أن الأجناس الأدبية ذاتها متغيرة ومتجددة، وهو ما أصاب النص الرحلي بشيء من الحيرة والقلق في تحديد هويته الأدبية. وقد ترتب على ذلك إشكالية ظهور "النص الهجين" هذا النص المتمرد إراديا وقسريا على الأنساق والنظم والقيم الفنية، خاصة بعد انهيار الفواصل بين الأجناس بحكم تداخل الحقول المعرفية، مما دفع بالنقاد إلى محاولة وضع تصنيفات جديدة، لهيكلة الأنواع المستحدثة والمولدة التي أفرزتها حركات تعانق المعارف وتداخل المناهج والنظم. [١٨]

ومن هنا؛ فإن النص الرحلي السعودي الداخلي المتعلق بالمعاجم الجغرافية ونحوها يمكن اعتباره من الأدب الرحلي إذا التزم صاحبه بالحس الأدبي في كتابته، ويمكنه اعتباره نصا هجينا يختلط فيه العلمي البحت بالتذوق الأدبي، ويمكن اعتبار جزء منه -وهو الأعم الأغلب- مؤلفات علمية بحتة مفيدة في مجالاتها المتخصصة. ولأجل ذلك كان التركيز فب البعد التاريخي على أبرز الرحالة السعوديين الذين لديهم حس أدبي عالي؛ بما يمكننا من رصد وتتبع حركة تطور النص الرحلي غير الهجين، او العلمي المغرق في تخصصات أخرى بعيدة عن الحس والتذوق الأدبي.

يؤكد هذه الإشكالية ما يقوله حمد الجاسر: "غير أنني رأيت أن هناك بعض المواضع التي ورد ذكرها في الشعر القديم هيء لي أن مررت بها، أو عرفتها فحددت مواضعها، وأحببت أن أسجل ما شاهدت مما في تسجيله فائدة، وأن أقدم للقارئ ما يفيده من ذلك، ورأيت أثناء رحلتي مواضع كثيرة لم يوفها المتقدمون حقها من التحديد في جنوب الحجاز مثل: أبيدة، وثروق، وبقران، وهي مواضع أثرية

(١٥) ينظر: رداوي، محمود، الرحلات وأعلامها في الأدب السعودي المعاصر، مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦ه، ص ٢٠ – ٢٥.
(١٦) ينظر: حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص ٣١ – ٣٢.
(١٧) سعد الله، مكي، الرحلة: جدلية المفهوم والتجنيس وآليات الكتابة، ص ١٨.
(١٨) المصدر السابق، ص ١٩.

قديمة، وردت كثيرا في الشعر القديم، واضطربت أقوال المتقدمين في تحديدها؛ فحاولت أن أوضح ما أعرف عنها، معرفة قائمة على أساس المشاهدة". (١٩)

فالفريق الأول: يرى أنه ضمن كتابه انطباعاته الشخصية، وذوقه الأدبي ما يجعلنا نعتبر هذا النص من جملة نصوص الأدب الرحلي السعودي، ويرى الفريق الثاني: يرى أن الكتاب يقدم رؤية جغرافية وعملية عن تلك المواقع والأماكن مجردة من الذوق والحس الأدبي، وبالتي يمكن اعتباره مؤلفا مهما في مجال جغرافيا شمال غرب الجزيرة، ولا يمكن أن جعله في عداد النصوص الرحلية الأدبية. وهكذا بقية المؤلفات التي اعتنت بوصف جغرافية المملكة العربية السعودية. (٢٠)

البُعد الثاني: البعد الجغرافي الخارجي للنص الرحلي السعودي في القرن العشرين، ويتمثل في مئات المؤلفات بلا أدني مبالغة، وهو البعد الغالب على النص الرحلي السعودي في القرن العشرين، وقد ترك الأدباء الرحالة السعوديون بصمة واضحة في هذا المجال، حيث قاموا برحلات شملت مختلف قارات العالم، وسجلوا انطباعاتهم وملاحظاتهم في كتب ومقالات، مما جعل أعمالهم بمثابة سفراء ثقافة المملكة العربية السعودية. ومن أمثلة هذه المؤلفات:

١ - في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين، دار الثقافة، ١٩٦٨، للعبودي.

٢ - رحلة إلى جزر مالديف: إحدى عجائب الدنيا، دار العلوم، ١٩٨١، للعبودي.

٣ - مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين، نادي لرياض الأدبي، للعبودي.

٤ - جولة في جزائر البحر الزنجي: أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي، للعبودي.

٥ - رحلة إلى سيلان: وحديث في أحوال المسلمين، للعبودي. (٢١)

٦ – رحلات إلى الشرق والغرب، لعبد الله الحقيل.

٧ – صور من الغرب، لعبد الله الحقيل.

٨ – من وحي رحلات إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لعبد الله الحقيل.

٩ - رحلات ومشاهدات سائح في البلاد الأوروبية، لعبد الله الحقيل.

١٠ - رحلات ومشاهدات في الوطن العربي والأندلس، لعبد الله الحقيل. (٢٢)

---

(١٩) الجاسر، حمد، في شمال غرب الجزيرة، نصوص ومشاهدات، وانطباعات، دار اليمامة، - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠١، ص ٩.

(٢٠) ينظر: حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص ٣٢ – ٣٨.

(٢١) بلغت مؤلفات العبودي في الأدب الرحلي قرابة ١٤٣ مؤلفا منها: صلة الحديث عن إفريقيا. مشاهدات رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين. إطلالة على نهاية العالم الجنوبي. زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية. شهر في غرب إفريقية. في نيبال بلاد الجبال. رحلات في أمريكا الوسطى. رحلة في الأرجنتين وتشيلي. جولة في جزائر البحر الكاريبي. رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل. رحلة إلى البيرو والإكوادور. جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ. للمزيد ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الإنترنت.

(٢٢) ينظر: الزازان، عبد الله، عبد الله بن حمد الحقيل سيرة ثقافية وتاريخية، الطبعة الأولى عام ١٤٤٠هـ م ٢٠١٩م.

١١ - رحلات حمد الجاسر.

١٢ - شهر في دمشق جزء واحد، لعبد الله بن خميس.

١٣ - جولة في غرب أمريكا جزء واحد، لعبد الله بن خميس.

١٤ - الأندلس تاريخ وعبرة، لعبد العزيز المسند.

١٥ – الصين: يأجوج ومأجوج، لعبد العزيز المسند.

وبالجملة فإن البلدان التي زارها أدباء الرحلة السعوديون في القرن العشرين يمكن وضعها في أُطر جغرافية كالتالي:

الدول العربية والإسلامية: مثل مصر، الشام، العراق، اليمن، المغرب، السودان... إيران، تركيا، الهند، باكستان، أفغانستان، وأجزاء من آسيا الوسطى ...إلخ، وكان الإسلام هو الرابط المشترك بين الرحالة السعوديين وهذه الدول، مما شجع على التبادل الثقافي والعلمي.

أوروبا والأميركتين الشمالية والجنوبية: فرنسا، إنجلترا، إيطاليا، ألمانيا، وروسيا، إسبانيا، البرازيل، الولايا المتحدة...إلخ، فقد زار بعض الرحالة السعوديون هذه الدول بدافع الفضول العلمي، أو للتعرف على الحضارات الغربية، أو للدراسة في جامعاتها.

وليس المقصود هنا هو حصر كل الرحلات الخارجية التي كتب عنها الرحالة السعوديون؛ فالأمر يطول شرحه، ولكن المطلوب هنا هو التأكيد على أن البعد الجغرافي الخارجي حاز على نصيب الأسد من النص الرحلي السعودي في القرن العشرين. كذلك فإن إشكالية التجنيس الأدبي في هذا البعد كانت أقل حدة منها في البعد الجغرافي الداخلي؛ لأن البعد الجغرافي الخارجي يقترن بكثير منه الحس الأدبي، والذوق البلاغي، والتعبير الوجداني، ولا يقتصر فقط على الوصف المشاهدة المجردة.

المبحث الثالث: الخصائص الفنية والجمالية للأدب الرحلي السعودي خلال القرن العشرين.

حظي الأدب الرحلي في المملكة العربية السعودية في القرن العشرين باهتمام كبير، وقد عبر كثير من أدباء الرحلة عن ذلك، فالأديب الرحالة ابن خميس مثلا يقول: "أفلا تكون الرحلة في زماننا هذا واجبة يقوم بها التاجر والزارع والصانع فضلا عن المثقف، ومن يعني بدراسات أحوال الأمم، واستطلاع شؤنها سياسيا واجتماعيا وعلميا". (٢٣)

وعن أهمية الأدب الرحلي يقول الأديب الرحالة الحقيل: "وللأسف قليلون هم أولئك الذين يستفيدون من الرحلات، بحيث يجسدون مشاهداتهم، ويرصدون معلوماتهم، ويدونون انطباعاتهم، ثم يثنون ذلك بالبحث والدراسة بما يتفق مع تخصصهم وميولهم". (٢٤)

ويسلك العبودي طابعا هجوميا ساخرا من بعض الأدباء المتكاسلين عن الترحال، أو الرحالة الذين لا يدونون مشاهداتهم في رحلاتهم؛ فيقول: "وإنما العيب كل العيب على الأدباء الذين كسلوا أو تكاسلوا عن الترحال، وإذا رحلوا عجزوا أو تعاجزوا عن التسجيل، وإنما يطلبون في ترحالهم هدوء المزاج عند شاطئ تداعبه الأمواج، أو في قمة جبلية ذات نسيم عليل. ولا ينسون أو ينسى أكثرهم أن يبحث عن

(٢٣) ابن خميس، عبد الله، شهر في دمشق، ص ١٣.
(٢٤) الحقيل، عبد الله، رحلات وذكريات، ص ١٧.

مكان يتوفر فيه الطعام اللذيذ واللحم الحنيذ، ثم لا شيء بعد ذلك، وأما التسجيل والتعليل للمشاهدات، ووصف حالة الشعوب بطريقة صادقة خالية من المبالغة أو المعاندة فإنهم قد تركوها لغيرهم من أدباء الأمم الأخرى، فأراحوا أنفسهم، وأراحوا قومهم من ادعاء المجد بأعمالهم، فكانت الاتكالية الثقافية، بل القحط الذهني المريع. وكان نصيب الرحلات من ذلك هو النسيان والتضييع". (٢٥)

هذه النصوص تعني أننا أمام أدباء يدركون قيمة الرحلة وأهميتها، فهم يوجهون النقد الذاتي الهادف لتحسين اللون الأدبي من حيث الشكل ومن حيث المضمون، وهم مع ذلك يحتفظون بالأصالة؛ فالمتأمل فالنصوص الرحلية السعودية خلال القرن العشرين سيجد مجموعة من الأفكار والمشاعر التي ظهرت لدى كثير منهم تشكل قاسما مشتركا يتفق في الأطر العامة، وإن اختلف في زاوية الرؤية، وشكل المعالجة بسحب كل أديب منهم وخلفيته الثقافية، وكان من آثار ذلك تبلور مجموعة من الخصائص الفنية والقيم الجمالية، من بينها:

١ – التأثر الواضح بالثقافة والقيم الإسلامية:

لا يمكن للمتتبع لأدب الرحلة السعودي في القرن العشرين أن يتجاوز الأثر الواضح الذي تركه الإسلام على كتابات كثير من الرحالة، ولم يكن ذلك خاصا بأدب الرحلة في المملكة فقط، بل كان واضحا في فنون وصور أدبية أخرى، ولكن هذا الأثر يتضح أكثر في أدب الرحلة لتوفر دواعيه. فالرحالة يصادف من الرؤى والمشاهد والأحداث التي تتطلب في كثير من الأحيان توضيح رؤيته القائمة بالأساس على الفكر والعقيدة الإسلامية. بيد أن تجلي هذا الأثر الإسلامي على رحلات هؤلاء الرحالة كان ظهوراً طبيعياً بلا تكلف.

وكان الداعم الأساسي لذلك هو الثقافة الإسلامية الواسعة، والعمق المعرفي. ولكن لا يمكن القول بأن الجميع كان على درجة واحدة، وإنما تفاوتت المواقف الدالة على ذلك، وتباينت طرق الأداء، ومناهج المعالجة، ولكن كان الهدف كان مشتركا بين الجميع، وهي الصدور عن التزام أحكام هذا الدين وآدابه وخدمته بالأساس. (٢٦)

كان من تجليات ذلك مثلا استخدام النص القرآني الكريم للتوصيف. ففي رحلته إلى أمريكا مر الأستاذ المعلمي بشيكاغو وقد رأى أجساداً عارية وألونا من الخروج عن قيم دينه، فيقول: "وشممنا روائح كريهة تنبعث من أجساد الراقصين والراقصات، وكثير منهم من الزنوج، وتنبعث أيضاً من السجائر الرفيعة الغليظة التي ينفث دخانها الساهرون في تلك العلب الليلية، ويمتزج بعضها بروائح غريبة لعلها روائح أعشاب أو حشائش أو عقاقير مختلفة الأنواع يرون أنها تزيد بهجتهم وسرورهم، وتكمل متعتهم بالجو الخانق الذي يمكثون فيه ساعات طويلة؛ فتذكرت قول الله تعالى: **سمحأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِسجى [البقرة: ١٧٥]**. (٢٧)

كذلك كان من تجليات العاطفة الدينية القوية هي الوقوف أمام الظواهر الطبيعية وقفة تدبر وتأمل، ومن ذلك قول الرحالة عبد العزيز المسند: "وعندما هدأ الناس في فراشهم قضيت أنا وعبد الله وقتا في التفكير بالكواكب والنجوم حيث ننظر إليها بالمنظار المقرب فرأينا عجائب مخلوقات الله ... ومنظر

(٢٥) العبودي، ناصر، بين الأرغواي والباراغواي، ص ٧.
(٢٦) ينظر: حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص ٤١.
(٢٧) المعلمي، يحي، رحلات علمية ورحلات أخرى، ص ٨١.

النجوم في البر في الظلام وفي مكان بارز هادئ له روعة عظيمة لا يدركها إلا من عاشها، وحاول إدراك كنه المرئي المعروف منها، سبحان خالق الكون ومدبره". [٢٨]

ومن هنا فقد وقف الرحالة السعودي أمام الظاهرة الكونية والإنسانية وربطها بمبدعها وهو الخالق عز وجل الذي أوجدها، أو أوجد القدرة لدى هذا الإنسان لصنعها، ومما يحمد للرحالة هنا أن هذه الظواهر لم تكن لتمر أمام ناظريه دون هذا التدبر والعمق، كما أنها إن أوحت له الدهشة والتأمل، فقد منحها هو بعداً روحياً رائعاً، واستطاع أن يربط في غير ما خطابية أو سطحية بين الأسباب ومسبباتها، والحوادث ومحدثها جل وعلا. [٢٩]

وقد تعدت العاطفة الدينية في النص الرحلي السعودي الأقوال إلى ساحة الأفعال، وذلك من خلال رفضهم لما يقدم لهم من طعام أو شراب لا يوافق شريعتهم، يقول الأستاذ العبودي وهو في طريقه إلى ألبانيا: "وكان الصحن الرئيسي فيها خبزة كبيرة جيدة المنظر، في وسطها لحم جنزير أحمر أغبر، ومعه جبن أصفر حسن المنظر، ولكن منظره ساء بما جاوره من لحم الخنزير، في العلبة قارورة تحتوي على خمر من البراندي، فشربنا الماء المعدني، وطلبنا منه زيادة، ورددنا ما تبقى، واعتذرت المضيفة بأنها لم تكن تعلم بأننا لا نأكل مثل هذا الطعام، وإلا كانوا أعدوا لنا غيره".[٣٠]

والأمر ذلك بالنسبة للأديب الرحالة عبد الله الحقيل وهو على إحدى طائرات الخطوط الفلبينية، حيث يقول: "ثم جاءت مضيفة الطائرة تسألنا عما نريد أن نشرب، فقلت: عصير برتقال، فاستغربا لهذا الطلب. فقالت: إن لدينا مشروبات أخرى، والتفت إليَّ التايلندي قائلا: إن المشروبات هنا مجانا، فأخبرتهم بأني مسلم، والمسلم لا يجوز له أن يحتسي المشروبات الروحية، فبدا عليهما الدهشة، فكانت فرصة للحديث عن الإسلام وقواعده وأسرار تشريعاته، والحكم العظيمة التي يتضمنها التحريم، والمصالح المترتبة على ذلك". [٣١]

هذه الخصيصة للأدب الرحلي السعودي في القرن العشرين خصيصة متفق عليها تقريبا بين الباحثين "فالمثل القائل: كل إناء ينضح بما فيه، ينطبق على رحلات الأعلام السعوديين الذين تمثلئ نفوسهم بقيم دينية وتراثية.. كانت حصيلة حياتهم وظروفهم الطبيعية التي نشأوا عليها. فبيئتهم الدينية والتاريخية والاجتماعية، كونت في وجدانهم وفكرهم مثلاً وعادات وتقاليد وأعرافاً.. لازمتهم ملازمة فطرية في كل تصرفاتهم وأحوالهم قولاً وكتابة. فلذلك كانوا ينطلقون من خلال تلك الكتابة أو القول منطلقاً عفوياً فتصدر عنهم بتلقائية فطرية وسلوك طبيعي. ومن هنا فإن القارىء أو الدارس لرحلات المفكرين السعوديين يستشف سموا فيها ... سموا في الروح، وترفعاً عن الحياة العادية المألوفة التي يعيشها سائر الناس. فتجد أن للحياة لديهم طعماً آخر، وهدفاً آخر. فتتميز شخصياتهم وتبرز بوضوح لما تتمتع به من سمو في الفكر، وسمو في السلوك، وسمو في الانطباعات والمشاهدات، وسمو فيما يلفت انتباههم ويثير وجدانهم وأعماقهم.. وإن تبدت لك للوهلة الأولى أنها رحلات طافحة بالسذاجة. ولكنها ستستحيل لك هذه السذاجة إلى موقف من السمو والأخلاقية المنشودة. [٣٢]

٢ – الرؤية النقدية الموضوعية:

(٢٨) المسند، عبد العزيز، أيام في بلاد العم سام، ص ١٠٩.
(٢٩) حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص ٤٥.
(٣٠) العبودي، ناصر، كنت في ألبانيا. رحلة وحديث عن الإسلام بعد سقوط الشيوعية، ص ٤٦.
(٣١) الحقيل، عبد الله، رحلات وذكريات، ص ١٢٢.
(٣٢) رداوي، محمود، خصائص الرحلات فى الأدب السعودي المعاصر، ص ٩٠.

يشكل النقد بأبعاده المختلفة ركناً أساسياً من أركان رقي أو تدني أي نص رحلي؛ فإذا كانت الرحلة بطبيعتها تفرض على الرحالة أن يسمع ويشاهد المختلف والغريب عن بيئته، فإن واجبه نقل هذا الشيء المختلف إلى القارئ واطلاعه عليه؛ وعندئذ لا بد من ابتعاد النص الرحلي عن النقل المجرد، إذ لا بد أن يكون هذا النقل يمر عبر ذات الأديب ورؤيته، حتى تمتزج الصورة المنقولة بالذات الناقدة سلباً أو إيجاباً. فإذا كان الرحالة السعودي ينتقد ما يخالف ثقافته الإسلامية وشعائره الدينية وحضارته؛ فإنه في الوقت نفسه يمتلك الجرأة والحياد ما يمتدح به الآخر، وينتقد به الذات، وهو ما يمكن وصفه بالنقد الموضوعي. (٣٣)

وهو أمر يمكن ملاحظته بسهولة في النص الرحلي السعودي في القرن العشرين، يقول الأستاذ الحقيل في إشادته باحترام الوقت والاستفادة منه عند الكوريين: "وهكذا أمضينا أياماً جميلة في كوريا، ولعل من أحسن الانطباعات التي تركت في نفوسنا أثراً طيباً هو حرصهم على الوقت والاستفادة منه، وتنظيمه بشكل يعود بالمصلحة فلا تجد من يمشي بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً حيث تطبيق نظام حظر التجول الساري تطبيقه منذ مدة طويلة وما زالوا ملتزمين به". (٣٤)

وقد أبدى الرحالة السعوديون إعجابهم ببعض الظواهر في رحلاتهم رغبة منهم في إظهار الاعجاب بها من جهة، وأداء للأمانة العلمية والأدبية في الوصف والكتابة، ولذلك كانت هذه الملاحظات مجردة من المقارنة. يقول الرحالة الأديب ناصر العبودي بعد جولة في أحد أسواق دولة نيبال: "وشيء آخر ملفت للنظر وهو أن الباعة لا يلحون على السائح الغريب مثلي أن يشتري من بضائعهم أو يعرضون عليه أن يشتري رغم صدوده عن ذلك، بل هم مؤدبون معه إن اشترى فذلك ما يطلبون، وإن لم يشتر فإنهم لا يلحون، وأمر آخر له أهميته في هذا الموضوع هو أنهم لا يتغالون في رفع ثمن السلعة ثم إذا ماكسهم المشتري أي فاصلهم كما تقول العامة خفضوا السعر وباعوه وقد جربت بنفسي ذلك، وأكثرهم امتنع عن أن يبيع بأنزل من السعر الذي حدده للسلعة في أول الأمر". (٣٥)

يعزز هذه الرؤية النقدية الإيجابية للآخر ما ينقله العبودي في رحلته لسور الصين؛ حيث ذكر أن الناس في هذا المكان يتسمون بالأدب، واللطف؛ فيقول: "ومن الملاحظ عند تجمع القوم من الصينيين في هذا المكان الذي ازدحم بهم أنهم مؤدبون مهذبون مع الآخرين، فلا تكاد تجد أحداً يضايقك أو يؤذيك بفضول أو نحوه مما يدل على تهذيبهم في المعاملة وهو أمر عرفناه من هؤلاء الصينيين بعد ذلك". (٣٦)

ولا شك أن هذه الملاحظات تدل على حرص بعض الرحالة على تقديم صورة صادقة عن البلد المزار، وأهله، وإذا ما علمنا أن العبودي كان يمثل برحلاته جهداً ضخماً لنصرة الذات في كثير من بقاع العالم وتقديم صورة واضحة عما تلاقيه، فإن ذلك لم يمنعه من الموضوعية والإنصاف في نقل وتحليل بعض الظواهر الإيجابية، ولا غرابة في ذلك فمنهج الرحالة السعودي ومستقاه الإسلامي يدعوه إلى العدل والوسطية في كل الأمور. (٣٧)

٣ – القدرة على تقديم الصورة التفصيلية للمشاهد المختلفة:

(٣٣) ينظر: حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص ٨١.
(٣٤) الحقيل، عبد الله، رحلات وذكريات، ص ١٢١.
(٣٥) العبودي، ناصر، في نيبال بلاد الجبال، ص ٤٠.
(٣٦) العبودي، ناصر، داخل أسوار الصين، ١٥٦/١.
(٣٧) حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص ١٠٤.

تفاوتت قدرة الرحالة السعوديون خلال القرن العشرين في توظيف الصورة الأدبية في النص الرحلي من خلال التركيز على تكثيف الصورة، ورصد تفاصيلها وخطوطها، وبث المشاعر الذاتية، وما يمكن ملاحظته بوضوح هو أن الرحالة السعوديون قدموا صورة تفصيلية ترصد كثير من التفاصيل.

نجد ذلك بوضوح مثلا في تفاصيل الصورة التي ينقلها الأستاذ الدريس عن حالة "البوسنة" وأهلها زمن تغول الصرب عليهم؛ فيقول: "في البوسنة والهرسك ينظر الطفل إلى وجه أمه فيحزن أو تنظر الأم إلى وجه طفلها الحزين فتبكي! وينظر الأب إلى وجه طفله الحزين وبكاء زوجته، فتتشقق نفسه جروحاً ودواخله قروحاً فيلتهم القهر والعلقم، لم يعد لهم من سلوة بعد أن سجلوا الحزن في هوياتهم، وحفائظ نفوسهم، لم يعد في وسعهم أن يفروا منه وعنه، بعدما صار يطاردهم في كل زمان وفي كل مكان في الليل، وفي النهار، في الصحو، وفي المنام". (٣٨)

ونجد الأستاذ العبودي يقدم صورة مفصلة لمقارنة بين زيارته للعاصمة الأثيوبية في المرة الأولى وزيارته الثانية؛ فيقول: "وكانت زهرة حديثة عندما زرتها زيارة ممتدة في عام ١٩٦٤م ولكنها الآن زهرة ذابلة يابسة إن صح أنها لا تزال زهرة؛ فقد تظاهر عليها جدب العقول في هذه الثورة الاشتراكية في بلد ليس هناك ما يشترك فيه أهله إلا الإفلاس، ثم سلط عليها جدب الزمان فكفت السماء عن المطر، وتوقفت الأرض عن الإنبات، وجفت الأودية، ونبت الملح في مسايل المياه العذبة، فاشترك أهالي الحبشة في الموت جوعاً، كما كانوا قد اشتركوا في الجدب المعنوي خضوعاً للإمبراطور الراحل". (٣٩)

والأستاذ العبودي يحاول رسم صورة مركبة تجمع بين التردي المادي والفكري الذي أصاب أديس أبابا في رحلته الثانية، ومقارنة ذلك بحالة كانت أفضل في رحلته الأولى، ومع كل ذلك فقد جاءت الصورة حقيقية لا تقدم شيئا خياليا إلا ما يمنح الصورة مزيدا من الأبعاد الفنية وتزيدها وضوحاً، أو تسهم في تشكيل بعض الصور، ومحاولة تقديمها مرة أخرى.

ونجد الأستاذ العبودي يقدم صورة غاية في الإنسانية والشاعرية عن العنصرية التي مورست ضد الشعب الجنوب إفريقي وهو يشاهد المحيطين الأطلسي والهندي يلتقيان؛ فيقول: "هنا يلتقي المحيط الأطلسي القادم من الشمال يلامس شواطئ أوروبا البيضاء في اصطلاح القوم في هذه البلاد، وهو الاصطلاح الذي يقسم الناس على حسب ألوانهم وليس على حسب أعمالهم، وبعد شواطئ أوربا البيضاء، يلامس شواطئ المغرب وموريتانيا وهي شواطئ سمراء، ثم شواطئ القارة الأفريقية الغربية التي يسمونها سوداء حتى يصل هذه النقطة أسفل هذا الرأس الذي تحت أقدامنا فيعانق زميله المحيط الآخر القادم من عند الشواطئ العدنية اليمنية السمراء، فالشواطئ الإفريقية الشرقية السوداء، فيحتضن كل محيط منهما صاحبه، ويمتزجان تمازجاً كاملاً لا تحس معه وأنت تنظر إلى عناقهما حداً يميز مياه أحدهما عن الآخر. ولكن في هذه البلاد بالذات التي يتعانق فيها المحيطان لا يتعانق بنو الإنسان ولا يمتزج فيها الألوان، فلكل لون من ألوان بني الإنسان مرتبة عندهم، وشأن تميزه عن بقية الألوان، ألا ما أكثر طغيانك أيها الإنسان، وبخاصة إذا استغنيت فاستكبرت". (٤٠)

هذه الصورة التي يقدمها العبودي تخلط بين الأمر الطبيعي وهو التقاء المحيطين الهندي والاطلنطي، وغير الطبيعي في ممارسة العنصرية ضد عموم الشعب الجنوب الإفريقي في تلك الحقبة، ولا يقف عن حدود وصف هاتين الصورتين، وإنما يقارن بين قدرة المحيطات والأنهار على الامتزاج ورفع الحدود فيما بينها، وعدم قدرة البشر على رفع قيود وحدود العنصرية المقيتة.

(٣٨) الدريس، مدن تمطر دما، ص ٧٨
(٣٩) العبودي، ناصر، نظرة في وسط أفريقية رحلة وأحاديث عن أحوال المسلمين، ص ١٢.
(٤٠) العبودي، ناصر، رحلة إلى جنوب أفريقية وحديث في شئون المسلمين، ص ٢٩٨.

وتصل الصورة في النص الرحلي السعودي في التفصيل إلى حد استلهام السمو الأخلاقي، واستخراج العبرة، ويعمد الرحالة لوصف تلك الحالة الوجدانية بالاستشهاد بأبيات الشعر المأثورة؛ فالأستاذ المعلمي يصف حاله أثناء طيرانه؛ فيقول: "حقاً إنها متعة كبيرة، وشعور نادر يحس به من يرتفع عن الأرض فلا يرى تحته إلا الأجسام الكبيرة أما الأجسام الصغيرة فإنها لضآلتها تختفي عن ناظريه، وقلت في نفسي: هكذا الإنسان إذا ارتفع بنفسه، وارتقى بها فإن صغائر الأمور تختفي عن ناظريه، ولا يرى إلا ما هو كبير وعظيم وقد صور هذا المعنى أو قريباً منه شاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبي بقوله: وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم". (٤١)

وتذهب الصورة الشعرية للنص الرحلي السعودي صورة أبعد، حين يقارن الرحالة بين أحوال الناس وتطلعاتهم في رحلته، وبين حاله هو وتطلعات الناس في بلده، نجد ذلك في الصورة الشعرية التي حاول العبودي أن يرسمها في زيارته لمملكة بروناي؛ فيقول: "سألت أحد الإخوة البروناويين عما إذا كانوا يتوقعون مطرا؟ فأجاب: لا ليس هناك مطر ولله الحمد، فقلت له: إنكم تحمدون الله على عدم نوزل المطر. فقال: نعم؛ لأنه عندنا كثير ... فقلت: سبحان الله العظيم. عجباً للناس في أرزاقهم ... ذلك عطشان وهذا قد غرق". (٤٢)

وإذا كانوا وفقوا في ذلك فقد وفقوا في إمتاع المتلقي بنقل هذه الصور التي تألقت كثيراً حينما كانت تعتمد التفصيل ومحاولة الإحاطة في الرصد الذي ينطلق عبر ذات الأديب ومشاعره. ولذا كانت الصورة ترتهن في تميزها وجمالها إلى مقدار ما شحنت به من العواطف أياً كان نوعها. ومن هنا كانت أهمية الذات الفنية في إثراء الصورة، وكانت أهمية الصورة في إثراء العمل الرحلي الذي يعتمد في كثير من الأحيان على نقل المشاهد، وهذا ما ميز الرحالة ورفعهم من مجرد أن يكونوا آلات تصويرية ناقلة فقط!! (٤٣)

٤ – استخدام النزعة القصصية:

إن النص الرحلي يحمل جماليات القصة وإن لم يكن له طابعها وأدوتها؛ بمعنى أن طبيعة الرحلة تفرض وجود النزعة القصصية على الأديب؛ إذ يتخللها أحداث يقوم الأديب بصياغتها بأسلوب قصصي لجلب عناية القارئ وتشويقه في آن واحد حتى لا يعشر بالملل والضجر، وهو ما انتبه إليه كثير من الرحالة السعوديون؛ حيث ظهرت النزعة القصصية في كثير من نصوصهم الرحلية. ولأن تتبع السرد القصصي بطبيعته يعني ذكر كثير من التفاصيل، سنكتفي هنا أن نذكر مثال واحد للتدليل على قدرة الرحالة السعودي على استخدام أدوات القصة وعناصرها المشوقة في النص الرحلي بشكل يزيد من قيمته الفنية والجمالية.

ومن ذلك ما يذكره الرحالة خليل الرواف في قصة حصوله على رخصة القيادة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فيقول: "أما في لوس أنجلوس فإليك ما حدث؛ هممت بالخروج مع الشرطي لأداء الامتحان بعد أن أجبت على عدة أسئلة، وكان بجانب الرصيف سيارة فورد واقفة ظن الشرطي أنها سيارتي، وظننت أنها سيارة تابعة للشرطة، ومن غريب الصدف كان مفتاحها في موضعه فركبنا بها، وبينما كنا متوجهين إلى مكان الاختبار الذي يبعد عن المدينة مقدار عشرة أميال. قال الشرطي: إن سيارتك تسير سيراً حسناً، فأجبته: إنها ليست سيارتي. فصاح الشرطي مستغرباً: أليست سيارتك، إن القسم ليس لديه سيارة للاختبار، وأردف قائلاً: بعصبية زائدة، أسرع وعد إلى القسم، وهنا أصابني

(٤١) المعلمي، رحلة علمية، ص ١٠٩.
(٤٢) العبودي، ناصر، زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية، ص ١٧٣.
(٤٣) حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص ١٤٥.

ارتباك شديد ووجل وأخذت أسير على غير هدى دون أن أنتبه إلى الأنوار الحمراء لأقف عندها، بل كنت أواصل السير. وأما صاحب السيارة عندما عاد ولم يجد سيارته أخذ -كما أخبرت- يصرخ سيارتي سرقت من أمام القسم، وعلى مرأى من الشرطة، فامتطت الشرطة دراجاتها النارية، كما اتصلت بالأقسام الأخرى المنتشرة في أرجاء المدينة تجوب الشوارع وتطلق صافراتها، وبعد عشر دقائق وصلنا القسم، فألفينا الشرطة مرتبكة وتليفوناتها تدق أجراسها والقائمون عليها ترتعد فرائصهم، وقال صاحب السيارة: كيف أن السارق لم يحترم القسم؟ وكيف تجرأ، وسرق السيارة من أمام أعين الشرطة؟ إنها لجرأة كبيرة، جزاء فاعلها الحبس. فقال الشرطي الذي كان يرافقني: إن السيارة استعملت بالغلط، فلقد ظن هذا السيد أنها سيارة تابعة للقسم، وظننت أنا أنها سيارته، وأمرته أن يقودها. وأخذ رئيس القسم يمطرني بأسئلة عديدة دامت مدة عشر دقائق بعدها أطلق سراحي، وغادرت القسم صفر اليدين، فلم يسمح لي القائمون عليه برخصة تخولني قيادة السيارات بسبب ارتباكي في القيادة أثناء العودة للقسم". (٤٤)

هذه القصة الطريفة وموقف الرحالة الذاتي منها يدل على الصدق الفني، والموضوعية في السرد القصصي، والابتعاد عن المبالغة والتصنع، وأظهرت أهمية الذات الفنية للرحالة في إثراء الصورة من خلال النزعة القصصية، وكذلك أهميتها في إثراء العمل الرحلي الذي يعتمد في كثير من الأحيان على نقل المشاهد، وهذا ما ميز الرحالة ورفعهم من مجرد أن يكونوا آلات تصويرية ناقلة فقط!

وبالجملة فقد كانت النزعة القصصية سمة من سمات العمل الرحلي السعودي في القرن العشرين؛ نظراً لحاجة هذا العمل إلى هذا الفن على الأقل في أدواته وأساليبه، وقد وفق بعض الرحالة السعوديين إلى استثمار بعض الحوادث والمواقف، وإخراجها في أسلوب قصصي يعتمد الإثارة والتشويق عن طريق تتابع الأحداث وتشابكها، وإذا كانوا قد وفقوا في ذلك فإنهم وفقوا أيضاً حينما استلهموا خيالهم في صياغة الحدث، وإسقاط بعض المشاعر عليه، بيد أن خيالهم لم يتدخل فيما في إيجاد أو خلق حوادث هذا القصص. ولذلك وفقوا إلى إثارة المتلقي، وشده للقراءة والمتابعة، كما نجحوا في تلوين أساليبهم وفق ما يعرض لكل منهم من حوادث ومشاهدات. (٤٥)

الخاتمة:

وبعد هذه الجولة مع الأدب الرحلي السعودي في القرن العشرين؛ فقد توصلت هذه الدراسة إلى العديد من النتائج والتوصيات.

أولا: النتائج:

١ – تميز العديد من الأدباء السعوديون في القرن العشرين في تقديم الأدب الرحلي على نحو ممتع وفائق؛ كان من أبرزهم: حمد الجاسر، عبد الله بن خميس، محمد ناصر العبودي، يحي المعلمي، عبد العزيز المسند، عبد الله الحقيل، علوي الصافي، وغيرهم.

٢ – تميز النص الرحلي السعودي في القرن العشرين بتوسعه في بعده الجغرافي، حيث شمل البعد الداخلي للجغرافية الداخلية، وكذلك شمل القارات السبع، واتجه شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا.

(٤٤) الرواف، خليل، صفحات مطوية من تاريخنا العربي، ص ٢٩١ – ٢٩٢.

(٤٥) حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص ١٦٠.

٣ – تميز النص الرحلي السعودي في القرن العشرين بالعديد من الخصائص الفنية والقيم الجمالية، وكان من أهمها:

أ- التأثر الواضح بالثقافة والقيم الإسلامية.
ب- الرؤية النقدية الموضوعية.
ت- تقديم الصورة التفصيلية للمشاهد المختلفة.
ث- استخدام النزعة القصصية.

ثانياً: التوصيات:

وتوصي الدراسة بعمل موسوعة كبيرة تضم كل النصوص الرحلية السعودية في القرن العشرين، على أن تكون هذه الموسوعة مرتبة ترتيبا تاريخيا؛ بحيث تذكر الرحلات التي قام بها الرحالة في كل سنة على حدة، ثم التي تليها، بما يساهم في حفظ التراث الرحلي السعودي في هذا القرن.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن خميس، عبد الله، شهر في دمشق، الدار الأثرية – عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ ه.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، لسان العرب، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.
- أحمد، محمد، الشيخ العلامة والأديب الرحالة محمد ناصر العبودي، مكتبة الثقافة العصرية، جدة، ١٤٣١.
- الجاسر، حمد، رحلات حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر – الرياض، ١٩٨٠م.
- الجاسر، حمد، في شمال غرب الجزيرة، نصوص ومشاهدات، وانطباعات، دار اليمامة، - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠١.
- الحقيل، عبد الله، رحلات وذكريات في ربوع بلادي، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
- حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى، ١٩٩٧م.
- حمادي، عبد الله، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٩٧م.
- الدريس، مدن تمطر دما، دار الزمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.
- رداوي، محمود، خصائص الرحلات فى الأدب السعودي المعاصر، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، المجلد ١، العدد ٤.
- الرواف، خليل، صفحات مطوية من تاريخنا العربي الحديث، الطبعة الثانية، ٢٠١٩م.
- الزازان، عبد الله، عبد الله بن حمد الحقيل سيرة ثقافية وتاريخية، الطبعة الأولى عام ١٤٤٠هـ م ٢٠١٩م.
- سعد الله، مكي، الرحلة: جدلية المفهوم والتجنيس وآليات الكتابة، مجلة البيان، الكويت، العدد ٦٠٦، ٢٠٢١م.
- عبد الله بن محمد بن خميس.. سيرة ومسيرة، جريدة الجزيرة.
- العبودي، ناصر، بين الأرغواي والباراغواي، الطبعة الأولى، ١٤١٣ه.
- العبودي، ناصر، حصاد الرحلات، مكتبة الرشد، ١٤٢٨ ه.

- العبودي، ناصر، داخل أسوار الصين، الجزء الأول، الطبعة الأولى، ١٤١٣ه.
- العبودي، ناصر، رحلة إلى جنوب أفريقية وحديث في شئون المسلمين، مطبوعات نادي القصيم الأدبي.
- العبودي، ناصر، زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية، الرياض، ١٤٠٣ ه.
- العبودي، ناصر، في نيبال بلاد الجبال، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ ه.
- العبودي، ناصر، كنت في ألبانيا. رحلة وحديث عن الإسلام بعد سقوط الشيوعية، الطبعة الأولى، ١٤١٤ه.
- العبودي، ناصر، نظرة في وسط أفريقية رحلة وأحاديث عن أحوال المسلمين، الطبعة الأولى، ١٤١١ ه.
- العضيلة، عارف، عبد الله الحقيل.. مسيرة وطنية وتربوية وأدبية ناصعة البياض، جريدة الجزيرة، بتاريخ: الاثنين ٠٨ مارس ٢٠٢١.
- القرني، صلاح، الفريق يحيى المعلمي.. سادن اللغة والغواص في صدفاتها، جريدة الرياض، تاريخ النشر: ٦ أكتوبر ٢٠٢٢م.
- المسند، عبد العزيز، أيام في بلاد العم سام، الرياض، الطبعة الأولى.
- المعلمي، يحي، رحلات علمية ورحلات أخرى، دار المعلمي للنشر، ١٤١٢هـ.
- الموافي، ناصر، الرحلة في الأدب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الوفاء، القاهرة، ١٩٩٥م.
- وفاة الشيخ عبد العزيز المسند إثر سكتة قلبية، جريدة الرياض - العدد ١٤٣٤٤.
- وفاة الكاتب والصحفي علوي الصافي عن عمر يناهز ٧٨ عاماً، صحيفة سبق، نشر بتاريخ: ٢٦ يونيو, ٢٠٢٢.